

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾ (١) كأول تلميذ لرسول الهدى ﷺ علي أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له توحيدية:

«أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيد، وكمال توحيد الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عدّه...» (٢).

وليست كلمة التوحيد - فقط - لفظة تقال، وإنما هي القول بها في مقال وحال وفعال في كافة الأحوال، وهكذا تكون حصناً لمن دخلها، حصناً لفطرته عن تفتورها، ولعقله عن جهله، ولصدره عن ضيقه، ولقلبه عن تقلبه، وللبه عن تحرفه، ولفؤاده أن يتفاد إلا بنور المعرفة، ولحواسه وأعضائه إلا في خدمة الله وعبادته، وعباده، حيث تبدأ كلمة التوحيد من الفطرة إلى العقل إلى الصدر إلى القلب إلى اللب إلى الفؤاد، شاملة كل جوانب الروح وأعماقه، ظاهرة في كل الحواس والأعضاء دون إبقاء، فيصبح الموحد بكل كونه وكيانه داخلاً في حظيرة التوحيد لحضرة الواحد الحق المتعال.

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾:

﴿الْحَيُّ﴾ فلا حي - كما لا إله - إلا هو: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (٣)

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.

(٢) من الخطبة الأولى في النهج حسب رواية الشريف الرضي رحمه الله تعالى.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾^(١) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾^(٢) وكل حي يموت بل هو ميت حال حياته .

﴿الْقَيُّومُ﴾ فلا قيوم إلا هو، قيوماً بذاته لذاته ولخلقه، قائماً على كل نفس بما كسبت وقائماً بالقسط تكويناً وتشريعاً .

و﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هما يعنيان كل صفات الفعل إلى صفات الذات: العلم والقدرة والحياة، فهما - إذاً - أجمع صفات الله ذاتية وفعلية .

ثم ﴿الْحَيُّ﴾ هي كأصل من صفات الذات مهما كانت مصدراً لصفات الفعل حيث الميت ليس ليفيض الحياة ولكنه حي في ذاته قبل أن يخلق خلقاً وبعد ما يفنون .

وهو من متشابهات الصفات حيث يشترك في التعبير عن الحياة بين الله وخلقه الأحياء ولكن أين حياة من حياة، فإن الله هو الحياة والخلق ليس في ذاته إلا الممات، وحق المعني من الحي لله يباين كلياً المعني من حياة الخلق، فقد اشترك فيهما الاسم واختلف المعنى دون أية مشاركة اللهم إلا في عدم الموت فيهما، فلا نفهم من حياته إلا أنه ليس بميت دون جهة من جهات الإثبات في حياته، ونفهم من حياة الخلق كلا جهتي النفي والإثبات، فحياته تعالى تباين حياة خلقه، وحياتهم تباين حياته فإنه «بائن عن خلقه وخلقه بائن منه»، حيث الحياة الإلهية هي عين الذات وذاته عين الحياة، لا تختلفان عن بعضهما البعض إلا في تحبير اللغات، ولكي يحفظوا الخلق معرفة ما إلى حضرة الحياة، إذ لا يعرفون من الذات المقدسة أمراً بالذات، ولولا الخلق لما كان تحبير اللغات وتعبير العبارات عن صفات وصفات، إذ يعرف هو نفسه بالذات دون وسيط العبارات .

(١) سورة طه، الآية: ١١١ .

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٨ .

ذلك! ثم سائر الحياة هي على حدوثها عارضة على الذوات، وهي على عروضها ليست حقيقة الحياة، محدودة زائلة كما الذوات، خليطة بموتات وموتات، بل نفس هذه الحياة هي بجنب حياته من الموتات، فصدق الحياة عليها مجاز بعيد، وصدقها عليه تعالى هو حق الحقيقة ولا تجتمعان إلا في التعبير وتحبير اللغات.

ولأن الله هو المحيي لكل حي فحياة الخلق - إذاً - من خلق الله، فهي إذا مباينة لحياة الله حق البينونة بين الخالق والمخلوق، حيث الخلق بين إنشاء لا من شيء كما في الخلق الأول، أو من شيء خلقه قبل، وليس من شيء ذاته القدسية حتى يشابه ذاته كوالد وما ولد، فحياته واصبة كل الحياة دون أن تتفرع وتتولد عنها حياة، وحياة الخلق راسبة في موتات، ناشئة عن ميتات وذاهبة إلى موتات وهي بينهما في الحق ممات، لا حظوة لها من حق الحياة ولا مثقال ذرة، وفيما الحياة المجازية في الخلق لا محسوسة ولا معقولة، فأحرى حياة الله إلا في تأويل أنها غير الممات، فليست لنا حظوة المعرفة الإيجابية لذات الله ولا صفاته بأسرها إلا بمعنى سلب أضرارها كما يناسب ساحة الألوهية.

فأسماء الله وصفاته هي من أغمض المتشابهات، لا بد من تجريدها عما يشابهها في الخلق. فربنا «لم يزل حياً بلا حياة، كان حياً بلا حياة حادثة»^(١) «حياً بلا كيف ولا أين، حياً بلا حياة حادثة بل حي في نفسه»^(٢) فهو «نور لا ظلمة فيه وعلم لا جهل فيه وحياة لا موت فيه»^(٣).

والحياة ككل هي لأقل تقدير علم وقدرة، ولأنها درجات فكل دانية هي

(١) نور الثقلين ١: ٢٥٨ ح ١٠٢ في كتاب التوحيد بإسناده إلى أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام

حديث يذكر فيه صفة الرب عز وجل وفيه . . .

(٢) المصدر عن أبي بصير عنه عليه السلام في حديث طويل.

(٣) المصدر عن جابر الجعفي عنه عليه السلام.

موت نسبة إلى عالية، وكل درجات الحياة هي بأسرها موت بجانب حياة خالق الحياة، وليست وليدة ذاته سبحانه حتى تجانس حياته باختلاف الدرجة، بل هي وليدة مادية بما أراد الله كما المادة الأولية، فإنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فهما صورتان متتابعتان لأصل المادة، وهي بأصلها وفصلها من خلق الله سبحانه وتعالى عما يصفون.

﴿وَالْقِيَوْمُ﴾ ليست إلا هنا وفي طه ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقِيَوْمِ﴾ (١) وآل عمران ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ . . . ﴿ (٢).

وهذه الثلاث مشتركة في عناية القيومية المطلقة: ذاتية وتكوينية وتشريعية، والأخيرة مصرحة - بعد إطلاقها - بالأخيرة.

و«القيوم» فيعول المبالغة القمة من القيام، قياما في مربعة الجهات رابعتها التقدير ومنه الهداية ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٣) فهو قيوم في ذاته وقيوم لخلقه تكويناً وتشريعاً وتقديراً، فلا قيوم إلا هو كما لا حي إلا هو إذ لا إله إلا هو الحي القيوم.

فمن قيوميته في ذاته سرمديته بأزليته وأبديته وغناه المطلق في ذاته.

ومن قيوميته في صفات ذاته أنها عين بعض كما هي عين ذاته، دون قوام بعضها ببعض ثم قوامها ككل بذاته قضية التركب فالحاجة فالحدوث في ذاته وصفاته.

ومن قيوميته في رحمته رحمانية ورحمية قيامه بالقسط ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . . . قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (٤) قسماً يحلق على كل أقساط الخلق

(١) سورة طه، الآية: ١١١.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٢، ٣.

(٣) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

والتقدير والتدبير، ومنه قيامه على كل نفس بما كسبت ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾ (١) وقيامًا على العباد بمصالحهم، وحيطة عليهم بما يكسبون، وحفظه لهم فيما يكسبون: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً...﴾ (٢) حفظه يحفظونهم بأمر الله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَہُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (٣) وكما يحفظون الأعمال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ (٤) كرامًا كنيين ﴿١١﴾.

لذلك فقد ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ في كل المواجهات والوجوه دون إبقاء في وجه من الوجوه، وهنا «القيوم» وصفًا للحي كما هو وصف لله يجعل كافة عوامل الموت والحياة والفقر والغنى خارجة عن ذاته وصفاته جلّت عظمته، فهو «الله: الحي - الله: القيوم - الحي: القيوم».

ولزام قيوميته تعالى عدم تبعضه وتركبه في ذات صفات، وعدم قيامه في موضوع أو مادة أو صورة، ولا في زمان أو مكان أو أيّ كان.

ومنه علمه الذاتي والفعلي وقدرته بكل شيء، فالقومية لزامها الحياة والعلم والقدرة المطلقة، كما الحياة لزامها العلم والقدرة وسائر القيومية، ف﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عبارة مختصرة محتصرة عن كافة الصفات الربانية، ذاتية كأصل، وفعلية تتبنى الذاتية في الفاعلية الربانية.

فقد استفيد العلم والقدرة من القيوم كما استفيدا من الحي، فقد تصبح - إذاً - ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ من الاسم الأعظم حيث يعمان صفات الذات والفعل إلى الذات، كما و«الله - هو» تعبيران عن الذات و﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عن كل الصفات.

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٤) سورة الانفطار، الآيتان: ١٠، ١١.

بل وكل من «الحي» و«القيوم» يقتضي الصفات الثلاث، كما كل من الثلاث يقتضي قسيمه، ثم الثلاث تقتضي كل صفات الفعل دون إبقاء. ذلك - مهما كان «الحي» تخص الذات و«العالم القادر» المستفادان منه ومن القيوم يعمان غير الذات.

إذاً ف«الحي» بعد الاسمين الأعظمين: «الله - هو» هو أول الأسماء، ثم القيوم ومن ثم سائر الأسماء والصفات.

وأحرى بنا أن نعبر عن صفاته - ولا سيما الذاتية - بالأسماء، وعن صفات فعله بالأفعال فأفعاله حادثة بما أحدثها، وأسماءه اللفظية حادثة بما سماها، والمعنوية الذاتية هي عين ذاته مهما اختلفت بعضها عن بعض وعن الذات في تحبير اللغات.

فلا مسرب لبيعة الكنيسة اللاهوتية إن ذلك تثليث لذات الله مهما اختلف عما عندنا من تثليث، فنحن مع المسلمين شرع سواء في توحيد التثليث! . فإن تثليثنا ليس إلا في حقل التعبير، مع الاعتقاد بوحدة الذات والصفات وحدة حقيقية، ولكنهم يعتبرون الذوات الثلاث واحدة والواحدة ثلاثاً، فهي عندهم ثلاث بوحدتها، منفصلات بوصلتها، جواهر ثلاثة هي واحدة وواحدة هي الثلاث، وكما انفصل أقنوم الابن وأقنوم الروح القدس عن رأس الزاوية في مثلث الألوهية.

ونحن نوحدهم الذات ونوحدهم معها صفات الذات في بُعدي توحيدها، دون اتصال ولا انفصال في واقع الألوهية، فأين ثلاث من ثلاث؟.

هم يمثلون تثليثهم بمثل الشمس أنها نور ونار حال كونها شمساً، فهي واحدة وثلاث، كذلك الله ذاته الشمس ولها أقنوم الابن والنور وأقنوم الروح النار.

ولكنها الشمس مركبة من جرم ونور ونار، وهذه قد تتفارق وأخرى

تتوافق، من جرم لا نار له ولا نور، ومن نور دون نار أو نار دون نور، والله تعالى شأنه غير مركبة الذات ولا الصفات مع بعض ولا مع الذات.

وبصيغة أخرى ثلوث الكنيسة اللاهوتية هو وحدة وهيئة لأنها تحكي عن ذوات متصلات كانت أم منفصلات، وصفات الذات عندنا لا تثلت الذات ولا تركيبها مع الصفات، لا متصلات ولا منفصلات، فمهما كانت عباراتنا شتى فذاته بصفاته واحدة، وذات الثالوث عندهم شتى في واقع الألوهية متصلة أم منفصلة، فأين ثلاث من ثلاث؟ وإن شئت فقل: ليست له صفات كما عندنا كما ليست له ذات مثل ما عندنا، بل هو «خارج عن الحدين حدّ الإبطال وحدّ التشبيه».

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾:

ذلك لأنه ﴿أَلْحَى الْقَيُّومُ﴾ والسنة والنوم هما من شعب الموت وعدم القيام بالنفس، فإنهما من حصائل ارتخاء البنية من كادح الشغل طوعاً أو كرهاً، وما لله من بنية، بائن عن مقسم الارتخاء واللاارتخاء، ولا يكدحه خلق ولا يغلبه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(١).

ذلك، فضلاً عن جزئيات الأفعال المستمرة على هامش الخلق ف﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(٢) ولا يشغله شأن عن شأن، وكل ذلك للقيومة المطلقة بحياتها.

إن السنة والنوم والموت هي إخوة في حقل العمر والرخوة، فعامل السنة يرخي الأعصاب إلى أشراف النوم فهي - إذاً - بين نوم ويقظة،

(١) سورة ق، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

وعامل النوم يزيد ارتخاءً بارتقائها فيها لحد يتم فيه انفصال روح اليقظة وهي الإنسانية عن البدن لفترة طالت أم قصرت، ثم عامل الموت يتم فيه انفصال الحياة بتمامها عن البدن، لحوقاً للحياة الحيواني ومعها النباتي إلى الروح الإنساني المستكن في بدنه البرزخي، فيبقى البدن ميتاً ككل دون أية حياة.

فلأن الله حي بحقيقة الحياة لا كالأحياء، فلا تأخذه العوامل المضعفة أو المزيلة للحياة كالسنة والنوم والموت، كما لا تزيده عوامل الحياة قوة فيها عدة أو مدة، فإنه فوق كل العوامل بآثارها، وهو خالقها بما تحل فيه من زمان أو مكان أو أي كان، كل شيء هو من امره ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾^(١) فلا يغلبه أمره أو يأخذه حتى تأخذه - فيما تأخذ سواء - سنة أو نوم، فليست في ساحة الربوبية عوامل داخلية ولا خارجية لسنة أو نوم أو موت، فلماذا - إذاً - تأخذه سنة أو نوم فضلاً عن موت.

وترى «لا تأخذه» تنفي أن يأخذ هو لنفسه سنة أو نوماً؟ ولا ملازمة بين السلبين! فقد يأخذ كائن لنفسه أمراً ولا يأخذه ذلك الأمر خارجاً عن خيرته!.

ولكن السنة والنوم حيث لا تأخذانه لأنهما من رخوة الذات ونقصها، فبأحرى ألا يأخذهما - سبحانه - لنفسه، وكيف ينتقص ذاته تعالى وهو الكمال المطلق، بل هو مستحيل في ذاته أخذاً لهما من ذاته أم سواء، كما يستحيل انعدام ذاته أو إعدامه بذاته أم سواء.

فنفس السنة والنوم، وبأحرى الموت وسائر الحوادث مكملة أو منقصة إنها ككل مستحيلة ذاتية في ساحة قدسه، والمحال محال على أية حال،

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

وبالنسبة لأية قدرة حتى المطلقة اللامحدودة منها، فإنها إنما تتعلق بالممكن ذاتياً دون المستحيل الذات، لا لضعف في فاعلية القدرة، وإنما هو في قابلية المحال.

فكما يستحيل الجمع بين المتناقضين - على تناقضهما ذاتياً - أم رفعهما، كذلك عروض عوارض الحدوث على السرمدي الذي لا يتحول من حال إلى حال ولا يتغير بانغيار المخلوقين، حيث الأزلية تناقض الحدوث، فلا يحمل الأزلي صفات الحدوث ولا الحادث يحمل صفات الأزلي، كما لا يحمل كل ذات الآخر.

ثم السنة والنوم وكل تحوّل وتغيّر هي لزام المادة بأسرها، والمجرد المطلق اللامحدود لا يتغير أو يتحول من حال إلى حال فكيف تأخذه سنة أو نوم^(١) وهما انقسامات لذات الحي القيوم إلى حالتي الموت والحياة!، ثم

(١) قد أطبق علماء الفيزيولوجيا النباتية أن النباتات كلها بحاجة إلى منامات وعلى غرار مختلف الظروف ضوء وحرارة وبرودة، وكذلك حسب اختلاف النباتات تختلف مواقع مناماتها وطولها وقصرها ونرى البعض منها لها منامات فصلية إضافة إلى اليومية. كذلك وأقوى وبصورة مرتبة نرى منامات الحيوان، وكلما كان مخ الحيوان أكمل وأقوى نرى الاختلاف بين نومها ويقظتها أكثر والترتيب بينهما أوفر. وقد أنتجت التحقيقات حول مناماتها أنها في الأكثرية الساحقة بين الحيوان ترتبط باختلاف الليل والنهار، فالطير تشتغل بمساعيها الحيوية منذ بزوغ الشمس، وعند غروبها تفتش عن مأمن للراحة والمنام. ولقد رؤيت بكرات ومرات أنها في ضوء مصطنع كالنهار تترك النوم وكما نرى في الحيوان الأهلية.

ونرى البعض منها تشتغل حتى في الظلام، وثالثة تعكس أمر المنام فتنام في النهار دون الليل كالخفاش «فهي مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً» (نهج البلاغة في ١٥٤).

ثم نجد في الحشرات مختلف الأقسام من حيث اليقظة والمنام فنرى البعض منها كأنها في =

وهما لو أمكنتا لخالق الكون لاستحالتا في صالح الكون حيث تنفصم بهما عرى الكون بأجمعه، و«لسقطت السماوات والأرض فهلكن»^(١).

ثم ولماذا تتقدم «سنة» على «نوم» وهي مقدمة له وذريعة إليه، فإذا لا يأخذه نوم فبأحرى ألا تأخذه سنة، وقد تكفي - إذاً - لا يأخذه نوم؟.

علّه لأن عامل النوم أقوى من عامل السنة، فهنا ارتقاء من الأدنى إلى الأعلى، فلا تأخذه سنة بعاملها الأدنى، ولا نوم بعامله الأعلى، فلذلك تتقدم سنة على نوم.

ثم وبينهما عموم من وجه فقد تأخذ السنة كائناً حياً ولا يأخذه نوم، أو يأخذه نوم دون سنة، أم تأخذه كلا السنة والنوم، فلكي يستأصل عن ساحته كل سنة ونوم كما الموت، فلذلك ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ف«ما من حي

= حراك ويقظة دائمة وكأنها لا تنام كالذر، فمناماتها فصلية لا تعرفها في فصول السعي وتحصيل المعاش.

ثم الإنسان - من بين الحيوان - يتعود النوم في الليل دون النهار وهو أصح وأصلح لاستمرارية الطاقات الجسدية والروحية وكما تدل على ذلك آيات بينات ك﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِيَسْتَكُونُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [٩] ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [١٠] ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ مَعَاشًا﴾ [١١] ﴿[النبا: ٩-١١]﴾.

هذه - مهما كانت الأخرى تعميم المنام بالليل والنهار سماحاً وجاه الرجاحة في الليل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الرؤم: ٢٣] ولعلها تعني المناطق التي تطول لياليها ونهاراتها عدة أشهر، فالضرورة فيها قاضية بالنوم نهاراً في نهاره والشغل ليلاً في ليله جمعاً بينهما في الليل والنهار.

ثم السنة والنوم قد تفرض على الإنسان من عوامل خارجية طبيعية كأكثر النومات، أم إرادية كالتنويمات المغناطيسية، أم داخلية بلا اختيار كالأتعاب النفسية، أم باختيار كمن ينوم نفسه لفترة قلت أو كثرت لغايات استثنائية.

(١) في الدر المثور ١: ٣٢٦ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا يا موسى هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله فناداه ربه يا موسى سألوكم هل ينام ربك فخذ زجاجتين في يدك فقم الليل ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوق لركبته ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت =